

نقد مشروع تعميم التعليم الاولي

نشرنا في ج ٧ و ٨ من م ٢١ تقريراً لمشيخة الازهر في نقد تقرير لجنة التعليم الاولي بوزارة المعارف لهذا المشروع . وقد طبع في هذه الايام تقرير آخر في شأن هذا التقرير لصديقتنا عبد الله افندي أمين ناظر مدرسة المعلمين للتعليم الاولي في مديرية الجيزة وهو ممن طلب مراقب التعليم العام منهم ابداء آرائهم فيه وقد رأينا أن تقتبس بعض فصول هذا التقرير المفيدة ولما كان الفصل الاول منه قد عقد لنقد تسع فقرات بينت فيها اللجنة سوء حال التعليم العام في القطر المصري ووجه الحاجة الى تعميم التعليم الاولي رأينا أن ننشر أولاً هذه الفقرات وهي التي انتقدها ونقفي عليه بنشر رأيه فيها وفي كل منها فوائده ذات قيمة ثمينة لمن يعنيه أمور التربية والتعليم . قالت اللجنة مخاطبة وزير المعارف :

الفقرات ٤-١٢ من تقرير اللجنة

٤ - ونم ما قالت معاليكم في فاتحة جلسات هذه اللجنة حين بينتم أن « فشوا الجهل بين جمهور الامة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد ، وأن ضرره لا يقتصر على اضماف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً عظيماً في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم ضرور الاسلح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشملهم تغطها لا يفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها »

(٥) والامثلة على ذلك كثيرة متوافرة في جميع فروع الاعمال الادارية لان الحكومة تضطر في جميع اعمالها الى أن تسبق بمراحل واسعة حال التعليم التي عليها جمهور الامة . فنها :

في الزراعة : الوسائل التي تستخدم لمنع قلة محصول القطن — مقاومة دودة القطن ودودة اللوز — اتباع الطرق واستعمال الآلات الحديثة في الزراعة — ادخال أصناف جديدة من المزروعات في البلاد — توسيع نطاق التماون في الشؤون الزراعية — زيادة العناية بالحوانات — توخي الطرق الفنية في استعمال الاسلحة الخ

في الصحة العمومية : نشر القوانين الصحية الاولية بين الناس فيما يتعلق بهم وبتنازلهم والبلدان التي يقطنون بها - تحسين حل المساكن - وضع تصميمات للمدن والقرى - تفرير أنظمة لتنظيف المدن والقرى - اصلاح موارد مياه الشرب - تقليل نسبة الوفيات في الاطفال - تحسين وسائل العناية بالنساء والاطفال من الوجهة الطبية - التدابير التي تتخذ عند انتشار الامراض المعدية وغيرها مما يستدعي السرعة في تداركه - استئصال شائفة الامراض المتحصلة في البلاد كالبول الدموي (البهارسيا) والرمد

في الاشغال العمومية : المصارف - اصلاح البور من الاراضي - تعمير الاراضي غير المسكونة - انفاذ أوامر المناوبات وغيرها من أعمال الري

في التعليم : ترقية أبط أنواع التعليم الزراعي والفني

في الامن العام : ضبط الجرائم والتبليغ عنها ويدخل في ذلك الرشوة - منع اجرام الاحداث وصياتهم من الفسق - منع سم المواشي - مقاومة الهرب من الخدمة العسكرية والمعمل على اصلاح الجيش والشرطة (البوليس) - اصلاح طرق الردع بالعقوبة -

في القضاء : انشاء محاكم الاخطاط وغير ذلك مما له أثر في اصلاح القضاء

في الادارة : توسيع سلطة مجالس المديرات والمجالس البلدية في ادارة شئون البلاد - توسيع نطاق الضرائب المحلية - الاستمارة في المسائل الفنية بمشورة للمصالح الاميرية المختصة - الاحتياط لمنع نشوب الحريق بالقرى - اقناع الجمهور بفوائد التدابير التي تتخذها الحكومة كقانون خمسة الافدنة ونحوه - انشاء حلقبات القطن - تحديد مقدار الاراضي التي تخصص بزراعة القطن - تسمير المواد الغذائية - انفاذ أوامر لجنة مراقبة التموين - قانون المستنقعات والبرك الخ

في الشؤون الاقتصادية : بث روح الاقتصاد والميل على تقليل ديون الفلاحين - مقاومة كثر الاموال بلا تمير - توسيع نطاق صناديق الادخار (التوفير) وأعمال المصارف (البنوك) التجارية - رفع شان الزراعة والتجار المصريين حتى يستفوا عن الوسطاء من الافرنج - ترقية الصناعات - تاسيس صناعات جديدة الخ
في الشؤون الاجتماعية : ترقية شان المرأة - الاهتمام بالاطفال - مقاومة الشحاذة والشرود (التشرذم) - تحسين احوال الممبثة في بلاد الارياف والرغب فيها

هذه أمثلة عدة - لا تحتاج في سردها الى خبرة خاصة - وهي قليل من كثير من وجوه الاصلاح الاداري والاجتماعي التي تقوم بها الحكومة الان . ورجل أن أول عامل يتوقف عليه نجاحها انما هو تحرير الشعب من ربق الجهل وانتقاله (١) من هوة الامية

(٦) وقد جاء في ملحق السير للندن غورست بكتاب «انجلترا في مصر» تأليف اللورد ملر بعد ان تكلم على عدم بلوغ الحكومة النجاح المنشود في بعض فروع الادارة ما ترجمته «على ان السبب الحقيقي يرجع الى ما هو أبعد من ذلك..... وليس هناك علاج ناجع دائم الاثر الا النهوض بالشعب عامة وتهذيبه . وانما يكون ذلك بانتهاج خطة سديدة في التعليم سداها بعد النظر ولحمتها الخبرة السياسية» (صفحة ٤١٣) (٧) وقال المسيو شارلتي مدير التعليم العام في تونس في خطبة ألقاها بتؤمر افريقية الشمالية سنة ١٩٠٨ ما يأتي «ان التقدم الاقتصادي مرتبط بجميع شؤون الحياة على اختلاف أشكالها . بيد أن الناس لا يستطيعون الوصول الى هذا التقدم والانتفاع بجزايه الا اذا تربوا تربية تسهل لهم فهم كنهه وتقربه من أذهانهم . فان مسألة التعليم من أدق الامور وأشقها وخاصة في بلاد يجب فيه قبل بلوغ أسباب الحضارة الحديثة اجتياز جميع مراحل الطريق الطويلة التي خلقتها عصور الجهل المطبق . فاذا لم يتيسر حل هذه المسألة حلا تاما فلا أقل من الاقتراب من ذلك الحل باخذ جميع الوسائل التي يتناولها التعليم والتهذيب والندوة الحسنة»

٨ وقال الدكتور لورنس بولز الذي كان يشغل وظيفة ابائي بوزارة الزراعة في كتابه «مصر وطن المصريين» صفحة ٢١٤ ما ترجمته: «ان ما لارض مصر من الخصب والقوة لا يزال كامنا دفينا اذ هي لم تخط بعد خطوات تذكر نحو التيام بعملها الطبيعي وهو انتاج المحصولات الزراعية وارسالها الى العالم بأسره..... وما لا يعتبره شك أن وادي النيل سيصير في يوم من الايام من أعظم الممالك الزراعية محصولا لان به من مختلف الاجواء ما يناسب كل نوع من أنواع المحصولات المختلفة باختلاف تربة الجهة التي تنمو فيها ويربطها جميعا نهر النيل الذي هو منبع وجودها ومصدر حياتها . ومن هذه البقاع ما ستبقى الزراعة فيه أزمانا طويلة الامة على الحال الفطرية التي تشاهد في الغابات . ومنها ما يرقى حتى ينتج أنفس المحصولات

(١) المار: النشل والانتقال في العربية أخذ اللحم من القدر وله آلة غفناء تسمى المشال ويطلق النشل على أخذ اللحم عن العظام أيضا ويستعمله كتاب الجرائد رما لهم من المعاصرين بمعنى الانقاذ من هلكة حسية أو معنوية ولهذا المعنى في اللغة كلمة فصيحة وهي الانقياس قال ابن دريد :

ان ابن مبيكال الامر انتاشني من بعد ما قد كنت كالتائه اللقا

ولمحن الى الآن لم نألف افتتار الاعمال الزراعية الى المهارة الفنية. غير أن مشاهدة ورقة بديمة من تبغ هافانا أو الفلن الذي يكفي الرطل منه لصنع خيط ملوله ٢٠٠ ميل أو النباتات التي تزرع خاصة لاستخراج العقاقير الطبية تكفي لاقتناع كل متردد في عظم فائدة المهارة الفنية في الزراعة وجليل اثرها. فالزراعة التي من هذا القبيل - أي الزراعة التي تحتاج الى مهارة فنية - لها في مصر من الاحوال الملائمة ما ليس في مملكة أخرى. وقد برى في بديهة الامر أن في هذا القول شيئاً من الفلورولكننا لم نقله جرافاً..... وانكى ننتفع مصر بهذه المرايا الطبيعية بحسب أن يكون بها من العمال من مستطيعون أن يعملوا بمقوهم وأيديهم مما لذلك لانكون مبالغين اذا قلنا بان حاجات المستقبل ستكون كفيلاً بإيجاد طائفة جديدة راقية من المصريين أي بإيجاد شعب يجمع توفد القرى الى ما كان لا يجداده من قوة الاجسام» وليس هذا الانتقال المنتظر في المستقبل مقصوراً على القطر المصري. فان وزارة المعارف الانجليزية تقول في رسالة عنوانها «مسألة المدارس الريفية» ان عصر القوى المضلية قد فات ونحن الآن في عصر انبثق فيه فجر العقول «
٩ - وقد قدم للحكومة أخيراً تقريران من لجنتين ألفتا بامرهما: الاولى برئاسة حضرة صاحب المهالي اسماعيل صدقي باشا للنظر في توسيع نطاق التجارة والصناعة، والثانية برئاسة جناب اللغنت كولوئل بلقور للنظر في تعديل نظام مصلحة الصحة الصومية بمصر. وجلي أن ضروب الاصلاح المقترحة في هذين التقريرين ستلقى في الخطوة الاولى من اتقاها عقبات كبيرة لجهل الناس غاياتها النبيلة

١٠ - فقد جاء في تقرير لجنة توسيع نطاق التجارة والصناعة ما يأتي :
«ان ما سبق لنا ذكره من البيان المختص بالصناعات الصغرى المصرية لهو حجة قائمة وشاهد ناطق على ما بالبلاد من النقص الذي تنش منه أنين الشكلى وترزح تحت أثقاله. فان خلو الاعمال من النظام والترتيب واستهانة الممال باتقان عملهم من الامور الدالة على ضعف التعليم ونقص تهذيب الاخلاق....

«فاذا سأل سائل ما حال القطر من حيث التعليم العام والتربية الخلقية كان الجواب ان أقل بحث في هذا الموضوع يكفي للحكم بأن ما يتبع الآن من الخلط في التربية والتعليم في مصر يقصر عن الوصول بالبلاد الى الفرض السامى المقصود منها وعن النهوض بها من الوجهة الخلقية. اذ مما لا نزاع فيه مطلقاً أن التعليم لم يبر حتى الآن جميع طبقات الامة وأن التربية المنزلية لا تقتصر مساوئها على

نقصها وتنكبتها الفرض المنشود بل انها مبنية على أساس فاسد غير وطيء الأركان. فهي بدلا من تمويد النشء النظام وحسن التدبير تولد في نفوسهم الاسراف وسوء الإدارة في الاعمال . وهي تبث فيهم روح الكسل والاهمال وتصرفهم عن الجهد والنشاط . وهي تفرس فيهم التردد في الامور أوقلة العناية بها وعدم النظافة وما أشبه ذلك من النقائص التي تقف حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد من الوجهة المعنوية وبذا تموق تقدمها من الوجهة الحسية أيضاً

«ولما كان من واجب هذه اللجنة اقتراح جميع الوسائل التي تؤدي الى أقصى درجات الرقي الاقتصادي فهي تتشرف بلفت نظر الحكومة الى ضرورة الاسراع في انفاذ مشروعها المختص بتعميم التعليم الاولي وتوجيه مزيد العناية اليه . وترى اللجنة أيضاً أن من الواجب عليها التنبيه الى ضرورة بذل مزيد العناية بأمر التربية وتقوم الاخلاق واصلاح أحوال البيئة المنزلية خاصة فان تربية المرأة في هذا المقام من عوامل رقي الامة بأسرها»

١١- وأوردت لجنة النظر في تعديل نظام الصحة العمومية قولاً موجزاً في وصف الحال الحاضرة في مصر فقالت : «من المعلوم أنه لا يتيسر رفع شمس من الشموب الى المنزلة التي فيها يعرف لنفسه حتماً مادام الجو الذي يعيش فيه ملوثاً بالاقذار . فاننا اذا أجلنا النظر في أنحاء مصر وجدنا أن معظمها تملوه الأوساخ وتحط فيه رحاها الاقذار . فهي كما كانت في قديم الزمان ملطخة بالامراض على اختلافها ولا أمل في أن يقوم أهلها بما عليهم من رفع شأن بلادهم ما دامت الامراض تثقل عواتقهم وتخم على رؤسهم . ان نسبة الوفيات في الاطفال رائحة فثلك أبناء الامة يموت وهو في سن الطفولة وغضارة الحياة . هذا الى أن انتشار الحشرات والهوام بين النلاحين لم يقل على الرغم مما ثبت حديثاً من أن القمل وسيلة لنقل التيفوس والحميات الراجعة التي تفتك بالاهلين فتكا ذريعاً»

وقد اشارت اللجنة بوجوب «شن غارة شعواء للقضاء على الجهل والقذارة واستئصال سائفة المرض والبؤس» ومما يلفت النظر أنها ذكرت الجهل أولاً . ولم تعلق أملاً كبيراً على اصلاح الحال المعهية اصلاً وافياً بالفرض بتلقين أسباب ذلك لمن بلغوا سن الحلم فقد قالت :

«فإن الحقائق التي وقفنا عليها تدل دلالة واضحة على أن رجال فرقة العمال المصريين بمد أن يقضوا مع الجيش مدة يضطرون فيها إلى مراعاة أنظمة صحية خاصة لا يكادون يجمعون إلى مواطنهم بالقري إلا وهم عائدون إلى سيرتهم الأولى. فتراهم لا يمدون إلى بث شيء في نفوس قومهم مما تعلموه من أسباب النظافة. وكفى بتاريخ الجيش المصري دليلاً على أن ذلك ليس من الفرابة في شيء. فإن الجندي المصري بالرغم من تدريبه على النظام والترتيب ووقوفه تمام الوقوف على الطرق السحية المتبعة في المسكرات والتكنات لا يكاد يرجع إلى قريته إلا وهو مندفع في غمار عشيرته من الفلاحين فلا يمكن تمييزه منهم»

وختمت اللجنة قولها في هذا المقام بأن أوضحت أن أنجم وسيلة يرجى منها إصلاح الحال لأنكون إلا بالبدء بتعليم الطفل المتعلم قد يصح أستاذاً لوالديه غير المتعلمين ويكون بمثابة النواة الأولى التي تنبت منها على مدى الأيام عوامل رقي الفلاح» .

١٢ - وقد نشرت جريدة (الاجبار) بمرددها الصادر في ٢٨ ابريل سنة ١٩١٧ مقالة بقلم صحفني مصري (علمونا القراءة أولاً) وصف فيها الكاتب حال الفلاح المصري وصفاً ممتعاً لا يخلو من المبالغة وبين فيها أن مصر لا تحتاج إلى جامعات جديدة بل إلى نشر التعليم الأولي بين جمهور أهلها. قال مانصه :

«السواد الأعظم من الأمة المصرية من الفلاحين لا يبسي الجلابيب الزرقاء وأكثر هؤلاء (والحمد لله) لا يملكون القراءة والكتابة. أما الأفراد القلائل المقيحون في مواسم الفطر فلا يمتد بهم لقله عددهم بالنسبة لمجموع الأمة. فإذا أرادوا أحد من الفلاحين أن يكتب صكاً أو جواباً لا يجد من يكتبه له فيضطر أن يسافر من قرية إلى أخرى حتى يفتي بشخص يعرف كيف يخط. وكعادة مثل ذلك الشخص لا يفتك رموزها إلا عالم من علماء الآثار القديمة كالعلامة شامبليون الذي تمكن من قراءة الخط الهبروغليفي :

(نحن المصريين لا نعرف من أصول الصحة شيئاً. وكل من ذهب إلى إحدى القرى أو العزب يشتم قبل أن يسأل إليها بيضة أميال الروائح الذكية (في أنوف ساكنيها) الصاعدة من أكرام السنان القائمة كاهرام المنزة صنع أجدادنا وجر.

تجرباً بالقرية أو المزبة من كل جهاتها . ويرى بخاري جامع القرية ذات المنظر الجبل
تجري الى النبعة التي يشرب منها أهل القرية بدون اسم نواز . ويرى شكل القرى
الكثيب والمنازل المتلاصقة ذات الابواب الضيقة والغرف التي ليس بها منافذ ويرى
الفلاح نائماً هو وأولاده بجانب جاموسته لا فرق بين الجميع .

« ومن المضحك المبكي أن اسم الدكتور عند الفلاحين كلمة عزرائيل هند
المتدينين . فإذا أتى الدكتور الى بلدة ترى المرضى اخفقوا بأسرع من لمح البصر إما
أن يحملوا الى جهة في الفيض بيده أو بدفنوا في قش الارز أو حطب القطن المكوم
على الاسطح . ولا يفهم الفلاح (طبعاً) شيئاً اسمه ميكروب أو عدوى . ومع أنه لا شيء
أكثر من الماء عند الفلاحين نجد أكثرهم قدرا وسخا وكأنه يخشى أن يخلع ملبسه
فتحملها تلك المخلوقات الشريفة وتهرب بها الكثرة ما يلقها بهرشه وكرشه فهو
دائماً أبداً في قلبها .

« ليس في الدنيا فلاح يحافظ على تقاليد الفلاحة القديمة من عهد قدماء المصريين
أو من عهد أينما آدم الا الفلاح المصري . فلو بحث فلاح من أيام الفرائنة لرأى
أخاه فلاح اليوم لم يخن الامانة ولم يبد يده الى آلة من آلات الزراعة التي سلمها اليه
بتفسير أو تعديل . فالمحراث والشادوف والطنبور والتمالة الخوص كلها بحاتم العتيقة
كما تركها له . ووجدته أيضاً لم يغير شيئاً من طرق الزراعة القديمة فلم يتفنن أو يجتهد
ولم يحسن نوعاً من أنواع المواشي أو المحاصيل ولا يزال طعمة التاجر والمرايبي مها
سنت الحكومة من القوانين حمايته .

« فهل ينتظر من هذا الفلاح وهو كل الامة المصرية أن يقبل على الجامعات
التي تدرس الفلسفة والتاريخ او يقرأ الجرائد والمجلات العلمية أو يعلم ماتريد أن
تعلمه اياما الحكومة بمشوراتهم اولوائحها ؟ فالى أي شيء نحتاج الامة المصرية إذ نعتني
وتعد في مصاف الامم الحية وما هو الدواء الذي يشفيها من مرض الجهل فتصبح أمة
وكل فرد من أفرادها يعرف القراءة والكتابة فتنتج أذهانها وتعلم وترتقي ؟

« (أظن أن كل فاضل من القراء يفهم ذلك الدواء) »

وهناك جرائم مصرية أخرى ألحقت على الحكومة تراوا وصاحت بوجودها الشرع

في تعميم التعليم الاولي والمساواة الى ذلك حتى نستطيع أن نخطو فيه خطوات واسعة في القريب العاجل . انتهى نص الفقرات الخمس مع تصحيح عبارات قليلة صحفية من مقالة الاخبار ويليها ما كتبه عبدالله افندي أمين فيها وهو

التعليم الاولي والاصلاح

تقد الفقرات ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢

حاولت اللجنة في هذه الفقرات أن تقيم الأدلة على ما جاء في الفقرة الرابعة منها من أن « فشو الجهل بين جمهور الأمة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد وإن ضرره لا يقتصر على إضعاف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً جسيماً في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم شروب الاصلاح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشغلهم تفكيرهم لا يفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها » .

»

ومراد اللجنة من هذا الكلام إقناع أولي الامر بوجود الاسراع في تعميم التعليم الاولي فحسب . وهو مراد شريف جليل ، غير انه شغلها مما سواه فقامت أن تفصير الاهالي في قيامهم بتصديدهم من اصلاح الحكومة الاقتصادية والاجتماعي والسياسي اقصور مداركهم ، ليس أكبر من تفصير الحكومة نفسها وهي رشيدة عليمه وبينها وبين الشعب « هوة » لا تُمبره (أنظر ١٤ و ١٥) في قيامها بتصديدها من الاصلاح نفسه ولا شك أن قواعد الاصلاح وأصوله كلها ما كان منها من عمل الحكومة وحدها وما كان منها من عمل الشعب وحده ، كسلسلة متصلة الملقات يأخذ بعضها بأطراف بعض ويقوي بعضها ببعضاً . فلو أن الحكومة كانت مثلاً لشعبها فقامت بتصديدها من الاصلاح لكان لهم فيها أسوة حسنة

ولغرس هذا النصب في نفوسهم سرورا عظيما به وشوقا الى القيام
بنصيبهم من الاصلاح

ولو أن الحكومة أكثر من مستشفيات الامراض ومستشفيات
الارماد المنقلة والثابتة وانشأت حمامات ومنازل وأحواضا لتخزين المياه
وترويقها في القرى لأقبل عامة الشعب على هذه المنشآت اقبالهم الآن
وقبل الآن على ما أنشئ من مستشفيات الرمد وهو عظيم جدا، ولا أثر لها
على طب السموذة والتجارب الاهلية الناقصة الفاسدة وعلى الاستحمام
وغسل الثياب في مياه الترع والمصارف الراكدة وعلى شرب ماء النيل المكر
وأصلح ذلك من أجسامهم ونفوسهم وعقولهم أكبر اصلاح لما فيه من وسائل
حفظ الصحة ومن الانصراف عن المواد السيئة والتجارب السخيفة
والاعتقاد الفاسد فيها.

ولو أن الحكومة قدرت مثلا مكافأة لمن يتدع مادة رخيصة جدا
إذا مزجت بالتراب جعلته صلبا صقيلا ترصف به الارض وتيسر لها
وصف الطرق الزراعية الرئيسية وغرست على جانبيها الاشجار الضخمة
لدفعت عن الشعب عادية التراب وما يحمل من جرائم الامراض المختلفة
وأظلمته فدفعت عنه حرارة الشمس، ولبعتت بذلك في نفوس الاهالي
يقظة وانتباها لا يورهم في أشد الحاجة اليها - انتباهها لا يمكن أن
يكون بالنصح والاوامر وحدها

ان وسائل تربية الشعوب وتهذيبها كثيرة جدا . وكثير من هذه
الوسائل من عمل الحكومات وهي أقدر على القيام بها من الاهلي دأولى
بها منهم . غير أن سكوت الحكومة وتراخيها وحاجة البلاد الظاهرة الى
(المنار ٣٣٠) (٢٧) (المجلد الثاني والعشرون)

العمل النافع فيها يدفع من لا يقوى على الانتظار من أبناء الامة العاملين
 المخلصين الى القيام بما يحتاج اليه البلاد غير ناظر ولا منتظر المشغول عنها،
 وان اعترضته في سبيلها العقبات من قبل استمداد الاهالي أو امتعاض
 الحكومات وحسبنا دليلا على ذلك ما قام به مجلس مديرية الجزيرة المحترم
 من انشائه مستوصفين متنقلين في أنحاء المديرية سنة ١٩١١م أيام رئسته
 المفطور على الاخلاص والصراحة والغيرة والحزم والعزم والثقة بالنفس
 وحب الاصلاح حضرة صاحب العزة عبد الرحمن فحجي بك

أنشأ المجلس المحترم حينئذ هذين المستوصفين المتنقلين كما كان يتوقعه
 من الآثار الجليلة التي يتركها في صحة الاهالي وأخلاقهم وعاداتهم
 وعقائدهم وما أعظم ماتركا من ذلك ! فان الذين عولجوا فيهما يمدون
 بالالوف . ولعل مصلحة الصحة تذكر ذلك . وقد كانت أحق بهذا العمل
 منه غير أنها سكنت ولا تزال ساكنة حتى ملّ الانتظار ونقد الصبر

ان اللجنة تعلم علما يقينيا أن التعليم وحده لا يصلح النفوس . فقد
 نقلت في الفقرة (٢١) من (المستر الكي) قوله « أجل ان التربية العقلية
 المحضة لا تحدث تغييرا أساسيا في خلق الرجال » وتعلم أن الامة لا تغير
 ماها حتى تغير ما بنفوسها ، فلا بد للحكومة الرشيدة التي توصف بأن
 بينها وبين عامة الشعب « هوة لا تُصْبَر » من أن تسمى جيد السمي في
 البحث عن الملاج الناجح لتغيير شعبها ما بنفوسه — شعبها المخلص الذي
 ضربت له اللجنة مثلا الشعب الهندي اذ نقلت في الفقرة (١٩) من
 التقرير . « وأهني بهم الملايين من الفلاحين الفقراء المساكين الصابرين
 الأذلاء . . . »

وما تلك الوسائل النافذة؛ تلك الوسائل هي الاصلاح الفعلي كانشاء المستشفيات وترويق المياه وغيرها، لا النصائح التولية والامر الكنايية التي لا تغير من نفس ولا تحي من عمل. لقد آن للحكومة الرشيدة أن تعدل عن الخطة العنيفة البالية وهي الامساك عن وسائل الاصلاح الفعلية خوف زيادة الضرائب ولو زيادة طفيفة تقدر بالمليم، وتممد الى خطة المعلم الماهر والمربي الحاذق فتكوز مثالا حسنا في الاصلاح شبه مفتاحا خذ بنصره أخذاً صحيحا الى منازل النفع الحقيقية في الجسم والنفس والعقل من اقرب الطرق وأقومها وألا تظن أن نشر التعليم الاولي يكفي وحده لهداية الشعب وارشاده الى وجوه الاصلاح وحضه عليها من غير أن تقوم هي بالامثلة العملية منها فتوفي نصيبها من الاصلاح حقه

انها ان ظنت ذلك وعولت في كل ما ترهب من وجوه الاصلاح على التعليم الاولي وحده وركنت اليه وأقت المبه كله عليه، خابت الآمال وضاع الوقت سُدَى

التعليم الاولي والعالي

علم الحاكين وجهل المحكومين

تقد الفقرات ٢ و ٢٤ و ١٢٥

استكثرت اللجنة في الفقرة (١٢٥)^(١) من التقرير ما ينفق على التعليم العالي

(١) [نص الفقرة ١٢٥] ليس الامر مقصودا على قلة مجموع الاعتمادات المخصصة بالتعليم بجزاية الحكومة بالنسبة لما في معظم البلاد الاجنبية بل ان معظم تلك الاعتمادات ينفق على التعليم الراقى الذي لا ينتفع به سوى طائفة صغيرة ممتازة من الامة لا تدفع سوى قسم ضئيل من النفقات التي يتطلبها تعليم أبنائها، أما سكان الاقاليم الذين تنوقف ثروة البلاد على كدهم ونصيبهم، فلا يكادون يخالون قسما من التعليم في مقابل الضرائب

بجانب ما ينفق على التعليم الاولي . وانكرت في الفقرة (٢٤) ^(١) من الخطة التي انتهجتها الحكومة المصرية - وهي متبعة في البلاد من عهد المرحوم محمد علي باشا واضع اساس النهضة الحديثة لمصر ورافع لواثها - بتعليمها الطبقة

التي يقع معظمها على كاملهم

وإذا استثنينا الاعانة التي تمنح المكاتب في المحافظات ومديرية أسوان وقدرها ٧٣٠٠٠ جنيه وما ينفق على مدارس المعلمين والمعلمات الاولية الاربع وهو ٢٨٨٠٠٢ من الجنيهات وصافي ما ينفق على المدرسة الاولية الراقية للبنين والمدرسة الاولية الراقية للبنات وقدره ٤٠٠٠٠ جنيه وصافي ما ينفق على ثلاثة المصانع (الورش) الاميرية وهو ١٨٥٠٠٠ جنيه والاعانة المخصصة ببعض مدارس صنايعية غير تابعة للحكومة وقدرها ١٠٤١٠٠ جنيهاً - اذا استثنينا كل هذه المقادير ومجموعها ٦٨٠٠٠٠ جنيه أمكن القول بأنه لم يدرج شيء في ميزانية الحكومة لسنة ١٩١٨ - ١٩١٩ لتعليم طبقات الشعب على أن معظم هذه المقادير يصرف في مدينتي القاهرة والاسكندرية . ثم ان الثمانية والستين من آلاف الجنيهات التي تصرف في تعليم أبناء الشعب يقابلها ٤٩٠٠٠٠ جنيه تحصل من ايراد الاراضي والمعار الموقوف للانفاق على المكاتب الالهية . أي أن ما تنفقه الحكومة في الحقيقة من ايراداتها الخاصة في كل سنة على تعليم الشعب نحو ١٩٠٠٠٠ جنيه فقط

[نص الفقرة ٢٤] قال المترأس كوث «ان الحكم على مقدار رقي الامة وفوزها في مضمار الحياة يجب أن يبنى على ما يتوافر لدى أدنا طبقاتها من الامور الحسية والمعنوية » ويرى أنه لم يبين الحكم على ما وصل اليه القليلون من خيرة أفراد الامة الذين ضربوا في التعليم الراقى بسهم . فإذا أردنا الوقوف على ما يتوافر لدى أدنى طبقات الامة المصرية من الامور الحسية والمعنوية وجب علينا أن نلقي نظرة الى انتشار الاكواخ الهلينة المبنية من الطين التي تضم بين جدرانها الانسان وبييمته والى شيوع القذارة والاوراخ وفشو الهال والامراض وعلاك ثلاث الابناء في طفولتهم وانتشار الامة بحال رائئة تعادل ٩٦ في المائة من السكان وضيق المجال أمام الافراد واقتصار

الراية للأمة التعليم العالي قبل تعليمها عامة الشعب (التعليم الاولي بلا شك) و عدت عملها هذا عملاً مقلوباً وضربت لذلك مثلاً قول (السير كلنتن دوكنز) في الفقرة (٢) ^(١) « ان التعليم الاولي في مصر شبيه بهرم مقلوب رأسه الى أسفل »

كدم على القوت البومي . فبل الى ترقية تلك الاحوال في الامة المصرية من سبيل صوي تميم التعليم لا . ومن العبث الاعتقاد بأنه يمكن الوصول الى الرقي المنشود بالبده بتعليم الطبقات الراقية قبل هامة الشعب أو بالاعتماد على ما يحدث من النائر الذي ينشأ من اختلاط الطائفة القليلة المتعلمة بطبقات الشعب الجاهلة بل ان الضرورة تقضي بالانحوض بالتعليم العام وتتطلب نشر نور العرفان في الامة بأسرها .

قال الشاعر بروننج في تصديده المعنونة براسلس مامناه بالعربية

كتبت على لوح الحقيقة حكمة	ان الرقي شريعة الاخياء
مالي اري الانسان يفض هينه	هن نور تلك الحكمة الزهراء
أجد حتى صار أهلا لاسمه	ان حق فخر الناس بالامناء
أم نال ما نصبوا اليه طباعه	من درك أعلى ذروة البلياء
أم أعمل المكنون من قواته	كي يلا الدنيا من النماء
أني يتوج بالكمال ولم يزل	في العلم معظمه من الفقراء
وكان أهل العلم بن سواده	بعض النجوم الزهر في الظلام
أو بضمة من نسل هوج حولهم	جسم من الاقزام والضعفاء

(١) [نص الفقرة ٢] لم يعزب عن أذهاننا من بادي الامر أن الموضوع يتضمن اعتبارات عدة عظيمة الشأن . فقد قال اللورد مورلي العالم والسياسي الشهير : « ان مسائل التعليم الاملية كيفما تنوعت طرق حلها ذات اتصال بحياة الامم وفتننا » وقال اللورد كرزن أيام كان حاكم على الهند : « ان طبيب الامة الحقيقي هو ذلك الذي يصف لها ألحاح وسبله لتربية أبنائها » . وتناول كل من اللورد كرومر في كتابه « ماهر الحديثة »

فكان هذا الاستكثار من اللجنة مع ذلك الانكار المقرون بهذا المثال
 نصلا حادة تناولها الحكومة اذا شاءت ومضى شاءت لتخزيبها التعليم العالي
 وأدلة واضحة جلية على أن الاقاويل والآراء التي نقلتها اللجنة الى تقريرها
 من كبار المستثمرين قد تركت فيها أثرا جعلها ترى التعليم العالي بيمين
 جنبية لا يستطيع أن ترى بها محل الحاجة وموضع النفع .

وان من يحسن الظن باللجنة كل الاحسان - مثلي - لا يجد لها فيما
 يتلمس من المآذير الا تذرا واحدا وهو ما يخيل الى المفكر في أول الامر
 من أن البدء بتعليم الولد الصغير التعليم الاولي ثم التنقل به بعد ذلك في
 مراحل التعليم الارق موافق سنة النشوء والارتقاء . أجل ان ذلك
 حق واضح . لكن لا بد معه للولد من وصي رشيد يقبله كيف يشاء وينقله
 من حال الى حال كما يريد . وان ذلك الوصي الرشيد يجب ان يكون منه

والسير ألدون غورست في الملحق الذي ذيل به كتاب اللورد مانر وهو « انجلترا في
 مصر » البحث في وجوب اتباع خطة جديدة في التربية ترمي الى تحسين حال الامة
 عامة من الوجهتين العقلية والحلقية (انظر الفقرتين ٦ و ١٥) . وقال السير كاتنن
 دوكنز في ملحقة لكتاب اللورد مانر (صفحة ٣٩١) : « ان التعليم بمصر شبيه بمصر
 مقلوب رأسه الى أسفل » . والحقيقة أن حال مصر المألمة كانت الى عهد قريب تنعم
 من اعداد وسائل التعليم على اختلاف فروعها ومن سد حاجة الامة اليه سدا وافيا
 وقد أوفى اتفاق ما يمكن بذله من المال في هذه السبيل على توسيع نطاق التعليم ذي
 الصبغة الاوربية الذي يتلقاه أبناء الاغنياء . فكانت النتيجة أن تعليم العامة لم يوجه
 اليه من هناية أولي الامر الا النزر اليسير . لذلك رأينا أن واجبنا غير مقصور على
 درس موضوع التعليم الاولي من حيث كونه مسألة قائمة بذاتها منزهة عن سواها
 وانه لا بد لنا من مراعاة ارتباطه بانظمة التربية التي تتبع في التعليم بوجه عام .

ليكون اخبر بحاجاته ومناقضه ومضاره

وان الامة لكذلك يجب ان يكون فيها ومنها ناس كبار المقول
يقودونها الى السعادة ويرفعونها الى اوج العظمة . لذلك كان تعليم طبقة
رائية من الامة علما رافيا قبل تعليم عامة الشعب العلم القليل موافقا لسنة
النشوء والارتقاء في الامم ، وقد ضرب لنا التاريخ امثلة كثيرة
قدمة وحديثة دالة على ان امما كثيرة نهضت من عثارها ونشطت
من عقابها بأفراد منها . فالناية بتكوين افراد اذنا في الامة
تكويننا فائقا احق واولى بالتقديم من تعليم عامة الشعب تعليما اعظم
ما يقال فيه انه اولي

هذا ما نراه ونشعر به ولم يسعدنا المفظ قط بان سمعنا او قرأنا ان
امة بأسرها اسكت عن التعليم المالي جملة حتى تعلمت كلها التعليم الاولي
ثم اخذت بمد في اسباب التعليم العالي ، وان اوتيت اوصياء حكماة رحماء
بصراة اقرباء من الاجانب

على ان التعليم المالي لا يزال جنينا في بلادنا ، فأين بضم مدارس
اميرية عالية تدرس فيها بعض العلوم المالية من جامعات كبيرة تدرس
فيها كل علوم البشر امع ان العلم الذي يدرس في مدارسنا المالية لم يكن
له في البلاد من اثر ظاهر نافع الا ما كان من علم الطب

لقد كان للجنة التي رأت حاجتها الشديدة الى النظر في التعليم بوجه
عام (انظر آخر فقرة ٢) ان تفتش عن حل آخر لا يمكن تفرغ الحكومة
للتعليم الاولي . ذلك بأن ترى مثلا ان في وسع الحكومة ضم مدارسها
المالية الى مدرسة جامعة وتأليف مجلس ادارة لها يؤلف من رجال

الحكومة والامة وان تشترك الحكومة والامة معاً في النفقة عليها على نحو الخطة التي خطتها للتماون بين الحكومة والهيئات النيابية في التعليم الاولي فيكون دراجة لنقل التليم المالى كله من يد الحكومة الى يد الاهال فتتفرغ الحكومة كل التفرغ للتعليم الاولي ولا تنفل نفسها بجاهمة لها كما جاء في الفقرة (١٣٠)

اما الهوة السحيقة التي لاتبرين الحكومين والحاكين كما تري اللجنة في الفقرتين (١٥ و١٤) فالذي حضرها انما هو التربية المدرسية لا العلم ذاته. فان الولد الذي يُنتزع من حضن أمه وأبيه وينزع عنه زي بلاده ويلبس الزي الغربي ويدفع الى مدارس قد صبغت بالصبغة الغربية (فقرة ٢ و٨٨) فيممر فيها طويلا لا تقع عينه فيها الا على كتب سداها ولحمها الروح الغربي ومعلمين مغربيين او ممن خلموا عنهم رداء الوطنية الصحيحة من قبله، فيشب على عادات واخلاق تزهدده في أمه وأبيه وسائر مماشربه كما تقول اللجنة في الفقرة (١٧) وتبعث فيه الغرور بنفسه. وما أبرد الشقة وأعمق الهوة بينه وبين أهله لو أتيج له أن يتم الدراسة في الغرب فيقيم فيه روحا من الزمن يفقد فيه لضمفه البقية الباقية له من سجاياه الوطنية حتى الحمودة منها ا

هذه حال نشاهدها كل يوم في اكر الشبان والشواب وقد نسوا جميعا معارفهم وعلومهم وبقي لهم من طرق التربية المدرسية اسوأ ما فيها وارادوه فليست الهوة السحيقة البميدة النور بين الطبقة الراقية من المتعلمين وبين عامة الشعب من تفاوت بينهم في العلم بل من نقص في تربية الطبقة الراقية النفيسة التي شوهدت بتريبة لا تلائم تقاليدنا وأم حتنا وعاداتنا

• بنا دلائل على ذلك ما نجده فيمن يتخرجون في مدرسة المتعلمين الناصرية ويرتدون الى أوربا بعد أن يكونوا قد صبغوا بصيغة وطنية محضنة فانهم يعودون وهم الى آلهم وعاداتهم وتقاليدهم أقرب منهم إليها قبل أن يتأدروا بلادهم لأن العلم وسعة العقل والمدارك من شأنها أن تنزع من نفس العاقل الوساوس والاهام والخطأ الذي يدفع بكتير من ناقصي العلم والمدارك الى استصغارهم أو ظلمهم وآلهم، وإكبارهم الغرباء وكل ما هم عليه لسبق أحرزوه في شيء من العلم والمدنية، حتى تمتع عليهم الحقائق ويحاط عليهم الحابل بالنابل ويلبس الحق بالباطل

هذا هو السبب الحقيقي في الهوة بين الطائفتين لا العلم المالي الذي تخشى اللجنة انتشاره قبل التعلم الاولي . وانا ارجو بعد ذلك أن يكون هذا الخوف قد زال



حضرت مرة مجلساً جمعتني بفتى ظريف وبأبيه وعمه وطائفة من اقربائه وكان هذا الشاب في زي ظريف ويحمل عصاً ونظارة وودبوسا كلها من ذهب وأعجب من هذا وذاك انه يلبس سواراً من ذهب بساعة من ذهب . وقد جلسنا طائفتين : احدهما فيها أبوه وعمه وناس آخرون ، والاخرى فيها هذا الفتى وكاتب هذه السطور وابن عم له اكبر منه سناً ومقاماً . وكان هذا الفتى على أبواب السفر الى أوروبا وقد ضرب له ابوه على نفسه ثلثمائة جنيه في كل سنة يتسلمها بيده وينفقها كيف يشاء وفيما يريد . وهو مع ذلك يراه مقداراً هياً . وكنا اذا فتحنا عليه باب النصيحة والادب حاول إغلاقه واستخف بأبيه وهو على مسمع ومرأى من الالشيء

آخر سوى الفرق بن زيه وزى أبيه والأزعات النفسية فيهما. أما المعارف والعلوم فهو منها خالي الوفاض بايدي الاتفاض قد نسي تلكم القشور التي قد حصلها منها.

فشل هذا سيمود من أوروبا وقد قطع آخر خيط يربطه ببلاده كلها لا سيما إذا عاد ويده شهادة. وأي خير يرجى من مثله لبلاده؟ وأين هذا الشاب المسكين المفروء بنفسه من شاب تعلم في مدرسة صبغت بصفة وطنية كمدرسة المعلمين الناصرية مثلا وأتم الدراسة فيها ثم سافر إلى أوروبا؟

الخيال في الشعب العربي

٢

التخييل التحضيري

تداعى المماني بوسية التذكر للأسباب التي كنا بصدد البحث عنها، ثم الخيلة تنتخب منها ما يناسب الغرض، وهذا العمل اعني الانتخاب يسميه علماء النفس تخيلا تحضيريا لانه العمل الذي تتمكن به الخيلة من استحضار العناصر المناسبة للرام

تقتصر الخيلة عند الانتخاب على ما يدعو اليه الغرض حتى انها تأخذ الجسم مقطوعا من بعض الاعضاء التي لا يدخل لها في المعنى فتصور الجواد بغير قوائم كما قال المتنبي

اتوك يجررون الحديد كأنما اتوا بجياد ما هن قوائم

والمقرب بغير ذنب كما قال ابو هلال

تبدو الثريا وأسر الذيل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وربما انتزعت المفضو من بين سائر الجسم كما أخذ ابن هاني اليد فقال